بلاغة الخطاب وطرق الإقناع

لغة الأحاديث النبوية غير اللفظية ـ أنموذجاً

الدكتور: بن فريحة الجيلالي

المركز الجامعي ـ تيسمسيلت ـ الجزائر

اللغة المنطوقة وسيلة مهمة من وسائل الاتصال بين البشر، وبواسطتها حصَّلت البشرية علومها ومعارفها في مجتمعاتها، وهي لا تعتبر الوسيلة الوحيدة في الاتصال، بل تشاركها العلامات غير اللغوية في هذه الوظيفة، فالناس يتواصلون بالكلمات والعبارات كما يتواصلون بالحركات والإشارات، وخير دليل على ذلك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الشريفة، ولذا نهدت ثُلَّةٌ من الرواة الأمناء والأوصياء فنقلوا لنا كثيرا من الأحاديث، ملتفتين على نحو معجب وعين مبصرة إلى حركاته الشريفة وإيماءاته، وشمائله، وتعابير وجهه ويديه وعينيه، وغير ذلك مقررين مساهمتها في الإبانة والتواصل، و ذلك أن مفهوم الحديث لم يكن مقصوراً على لفظه الشريف فقط، ومن جهة أخرى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعين بجوارحه بل كان يحلّ محل اللفظ فتكون دالة كما اللفظ؛ بل أبلغ في مواضع. إن الحديث النبوي الشريف هو نمط تواصلي، فقد أفضت جوارحه الشريفة بحركات مخصوصة إلى التعبير عن مقاصده فكانت ناطقة حيناً، ومساندةً للمنطوق حيناً آخر ومُجلية له حينًا ثالثًا وقد كانت كذلك مصدراً من مصادر المعنى الذي يقوم في نفسه عندما كان يقرأها في إيماءات من هو أمامه؛ حيث بدا أن للهيئات وظائف متباينة فقد تكون رافداً معززا للمنطوق، وقد تكون نائباً أم يقوم مقامه، وقد تكون مؤكدة ومماثلة لمعناه المنطوق.

La langue parlée est un important moyen de communication entre les êtres humains, dans laquelle les sciences humaines et les connaissances de leurs communautés ne sont pas considérées comme les seuls moyens de contact, mais partagent les signes qui sont outre que la langue dans cette fonction, les gens communiquent avec des mots et des phrases comme ils communiquent avec les mouvements et les signes.

يتميز الحديث النبوي الشريف باجتماع الكلام وقلة الألفاظ، مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف، وذلك لتبليغ رسالة ربه؛ فقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على استخدام أساليب مختلفة في الحوار؛ وذلك لما للحوار من أثر في أداء رسالته العظيمة، وكما اعتمد النبي صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في الأداء اعتمد كذلك على طرق مختلفة في الحوار.

و الحديث النبوي الشريف هو نمط تواصلي يتجلى في التواصل اللفظي وغير اللفظي؛ فقد أفضت جوارحه الشريفة بحركات مخصوصة إلى التعبير عن مقاصده فكانت ناطقة حيناً، ومساندةً للمنطوق حيناً آخر ومُجلية له حينًا ثالثًا وقد كانت كذلك مصدراً من مصادر المعنى الذي يقوم في نفسه عندما كان يقرأها في إيماءات من هو أمامه، فكانت تمثل دوراً مساعداً للغة المنطوقة وتفوقها – خاصة – في المواقف العاطفية.

الحاجة إلى استعمال الإشارة: إن وراء اللغة المنطوقة أنساقا غير لفظية تؤطرها، وقد تصبح في بعض الأحيان أنساقاً متميزة ومستقلة عن الأنساق المنطوقة. وتظهر استقلالية اللغة غير المنطوقة أكثر فيها يسمى بالرمز ونرى أوضح مثال يمكن أن ينطبق على وصف الرمز هو الميزان الذي يرمز عادة إلى العدل، وتكون الرابطة التي ترمز بين الرمز كمفسرة والعدل كموضوعة، وهي مبدأ التساوي أو المساواة، حيث تشير إلى ذلك كفتا الميزان المتساويتان بوصفهما الركيزة التي توضح الوجهة، والوصفة الرابطة بين كل من العلامة والموضوعة [1]؛ فإذا كنا نؤثِر اللغة المنطوقة على اللغة المكتوبة، لما في الأولى من ميزات تخلو في الثانية كاختصار الزمن في التواصل وإظهار ملامح أثناء الكلام، تكون عونا في فهم الرسالة؛ فإننا نكون أكثر حرصا في الاهتمام باللغة الحركية المصاحبة للكلام؛ لأن في بعض الأحيان يحتّم علينا ظرف التواصل استخدامها، وكما قيل: ربّ إشارة أبلغ من عبارة.

وقد بيّن "الجاحظ"ضرورة استخدام الإشارة قائلا: « والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وتغنى عن الخط ... وفي

الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير، ومعونة حاضرة، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس. وقال شاعر في دلالات الإشارة[2]:

أشـارت بطرف العين خيفة أهلها إشـارة مذعورة ولم تتكلم

فأيـقنت أنّ الطرف قد قال مرحبا وأهـلاً وسهلاً بالحبيب المتيم

وتناول " ليونارد بلومفيليد " الإشارة، وبيّن أهميتها على أنها تصاحب كلامنا كله، وتخضع إلى حد كبير إلى التواضع الاجتماعي، ولهذا فهي تختلف من مجتمع لآخر، كما أنها تستعمل في بعض المناسبات بدلاً من الكلام لدى بعض قبائل الهنود الحمر في شمال أمريكا التي تختلف لغاتها ولدى بعض جماعات الرهبان الذين يصومون أحيانا عن الكلام كما تعد وسيلة التخاطب الأساسية للصم والبكم.

ووظيفة الإشارة في الكلام، حسب " فندريس " أنها ترسم حدود الجمل التي ينطق بها المتكلم، بدايتها ونهايتها، كما أنها تساعد أفكارنا على الانطلاق، فاليد تمتد وتنكس كما لو كانت تغوص في أعماق الضمير لجلب الفكرة الوليدة، تعجنها وتصقلها بإعطائها الشكل المناسب ...فالإشارة في تصوره تخدم اللّغة في مساعدتنا على إبداء رغبتنا وحاجتنا للآخرين.[3]

طرق الإقناع في لغة الأحاديث النبوية غير المنطوقة :إن الكلام عن الأحاديث النبوية الشريفة التي اشتملت على أقواله صلى الله عليه وسلم وهي متلازمة مع حركـاته المختلفة (سواء بأصابعه، بيده، برأسه، بوجهه أو بهيئته كلها) واسع ومتنوع تنوع هذه الحركات، فاقتصرت على بعضها، ومنها:

1- الأحاديث الخاصة بحركات الأصابع واليد:

.أ- حركة الأصابع: وجاءت هذه الحركات مصاحبة لخطابه صلى الله عليه وسلم لتبيّن دلالات مختلفة، منها :

1) حركة التلازم والترادف: وقد تجلت تلك الدلالة في حركته الواردة في قوله الشريف: «**بعثت أنا والساعة كهاتين من هذه، أو قال كهاتين وفرّق بين السبابة والوسطى**-رواه أبو داود. **وفي** رواية أخرى: ويشير بإصبعيه، **فيمد بهما**»[4].

وتلك الحركة ذات دلالة على التلازم والترادف، فكأن الساعة مرادفة في الوقت لرسالته، «وقد جنح الرسول الأكرم- صلى الله عليه وسلم- إلى تمثيل هذا المعنى عامدا إلى ملحظ "الصمتيات"؛ ذلك أن مبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت ... فدلالة الحركة إذاً متّفقة مع دلالة اللفظ، واللافت للخاطر أن الراوي حمل الحديث بحركته ونقلهُ لنا بعداً، فوفّى المعنى حقه في الرواية والنقل»[5].

2) حركة التـــلازم و الصحبة: وقد بدا ذلك المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم: «**كيف بها وقد زعمت أنها قد أرضعتكما معًا و أشار بإصبعيه السبابة والوسطى**»[6].

وقوله أيضا: « **أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما** »[7].

فالذين يكفلون اليتامى كثيرون ولكن درجة الرعاية تختلف بلا شك من شخص إلى آخر، فكلما اقترب كافل اليتيم من الصورة المثالية في الكفالة كانت درجة القرب الأمثل فالأمثل، ودلالة القرب تفضي إلى دلالة الترغيب الشديد والحثّ على كفالة اليتيم فتلاحُمُ الإصبعين معادلٌ للتلاحُم بين أفراد المجتمع المسلم[8].

3) حركة دلالة التوحيد :قال الزبير كان الرسول صلى الله عليه وسلم: " **إذا جلس في الثنيتين أو في الأربع يضع يديه على رُكبتَيه، ثم أشار بإصبعه** "[9].

إن هذه الإشارة أدت معنى مستقلًا واستغنى بها عن اللفظ وأضحت رمزا يعبر به عن التوحيد وارتباط العبد بخالقه في حالة من حالات الصلة بين البشرية والربانية والإشارة بإصبع واحد تدل على إفراد الله بالوحدانية، وهذا ما يفسره حديث سعد بن أبي وقاص، قال: «**مر علي** رسول الله صلى الله عليه وسلم، **وأنا أدعو فقال: أَحِّدْ، أَحِّدْ، وأشار بالسبابة.** »[10]

ب – حركة اليد:

1.اليد المصورة الراسمة للمعنى: قد يلجأ المرء إلى استعمال يده، أو يديه كلتيهما لرسم مراده مساوياً بين الدلالتين الصامتة والصائتة، ليكون صنيعه ذاك شرحاً وتجلية وتفسيرًا لمراده، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «**يفيض العلم ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرجُ، قيل: يا رسول الله، وما الهرجُ؟ فقال: هكذا بيده فحركها كأنه يريد القتل**»[11]. فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم إشارته بيده كنُطقه بأن المراد القتلُ، والملاحظ هنا ثلاثة أمور: [12]

أولها: قيَام الحركة مقام الكلام.

وثانيها: اعتماده على دلالة الصَّامت الحركي في شرح الصائت اللَّفظي.

وثالثها: أن الـرَّاوي الأمين نقل الدلالتين معًا، فروى الحديث بلفظه، والحركة بهيئتها.

2.اليد المُعممة الشاملة: قد يعْمدُ المرء إلى يده ليعمم مراده، ومن ذلك قول صلى الله عليه وسلم: «**ألا أُخبرُكمْ بخير دُوْر الأنصار؟ فقالوا بلى يا رسول الله، فقال: بنوا النجار، ثم الذي يلُوْنهم...ثم قال بيده، فقبض أصابعه، ثم بسطهن كالرامي بيده، ثم قال: وفي كل دُوْر الأنصار خيرٌ**». [13]

وقد دلّت حركة الرسول صلى الله عليه وسلم المتمثلة في قبض الأصابع على التعميم والشمول فترادفت الدلالتان في أداء هذا المعنى وكانت الحركة مساندة للفظ في تقرير المعنى و إبانته.

وقد يتعسر على المرء في مقامات ما الكلام، فتتعطل لغة الكلام، فيسترفدُ المرء من الجسد عامة، وجوارحه خاصة العونُ على الدلالة و الإبانة، فتقوم حركاته الصادرة عن جوارحه مقام كلماته، ومن ذلك إشارة النبي بيده الشريفة أبي بكر بالمُكْث مكانهُ، وإتمام صلاته في مرضه الذي ماتَ فيه.

وفي رواية أخرى « **فلما أكثر والتفت أبو بكر، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم، في الصفّ، فأشار إليه أن مكانك.**» [14]

والملاحظ هنا أن إشارة اليد سدتْ مسد الكلام في مقام يمنعُ فيه الكلام وهو الصلاة فهنا تتدخل الإشارات اليدوية بسرعة إذا مُنع الكلام، بل تسيطر على بعض العناصر التركيبية.

2- الأحاديث الخاصة بهيئات الوجه ودلالاته :

1.الوجه المُشيحُ المُتعوّذُ: يشيع في كلامنا قول أشاحَ بوجهه، وهذا وصفٌ لحركة جسدية تنبئ عن الإعراض والتنحية في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم – أنه إذا غضب أعرض وأشاح وقد صدرت هذه الحركة عن الرسول صلى الله عليه وسلم – «**عندما ذكر النار في معرض حديثه عن اتقائها، واللفتة المُعجبة حقا أنه كان في حديثه ذاك يُوصي باتقاء النار، فعن ابن حاتم أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر النار فأشاح بوجهه، فتعوذ منها ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة**»[15].

فكانت تلك الصيغة مُرادفة لإشاحة وجهه عند ذكرها، فتعوذ من النار قولا وفعلا في ذلك السياق فأما بالقول فهو ظاهر، وأما بالعمل فبإشاحة الوجه الشريف.

2.الوجه الكاره المنكِر: كان الصحابة من حول الرسول صلى الله عليه وسلم يعرفون سروره واستبشاره من وجهه فكذلك كانوا يعرفون كراهة أمر من وجهه أيضاً، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها :« **لما أخبرته بأنها اشترت نُمرُقَةٌ فيها تصاوير فلما رآها قام على الباب، ولم يدخل فرأت عائشة في وجهه الشريف كراهية لما كان منها، وقد قررت ذلك المعنى الذي رأته في قولها: " فعرفت في وجهه الكراهية** »[16].فتواصلت معه مُذَعنَةً للغة الصامته ودلالتها التي تَبَدّت في وجهه الشريف، مجيبة باللغة الصائتة المستدركة.

وكان إذا رأى غيما أو سمع ريحاً، عرفَ في وجهه الكراهية والحق أنه معنى قد يثير في النفس استغرَاباً، وقد كان ذلك كذلك، فقد التفتت إلى ذلك عائشة فساءلته قائلة:« **يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فَرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرفَ في وجهك الكراهية، فقال: يا عائشة، ما يؤْمنني أن يكون فيه عذابٌ ....**» [17]

1.الوجه الطلق البسام: روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :«**إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع رأسه إلى السماء وضحك فقيل يا رسول الله مما رفعت رأسك إلى السماء فضحكت؟ فقال**

رسول الله صلى الله عليه وسلم: عجبت من ملكين كانا يلتمسان عبدا في مصلى كان يصلي فيه فلم يجداهُ فرجعا، فقال: يا ربنا عبدك فلان كنا نكتب له في نومه وليلته عمله الذي كان يعمل فوجدناه حبستَهُ. فقال الله تبارك وتعالى: اكتبوا لعبدي عمله الذي كان يعمله في يومه وليله ولا تنقصوا منه شيئا».[18]

فهذه هيئة وجهية مندُوب إتيانها، مأجورٌ آتيها، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلحُّ عليها، فتَجلت في سيرته وشمائله الزكيَّة قولاً لفظيا، وعملا حركياً.

3- الأحاديث الخاصة بهيئات الرأس ودلالاته:

1.الرأس المتكلم القائل " نعم " : جاء ذلك في حديث وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على عائشة أم المؤمنين، وبيده سواك وعائشة مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر النبي إلى السواك نظر الطّالب المستعطي، فقام في نفس عائشة معنىً مفادُهُ أنه أريد السواك فبادرته بالسؤال قائلة: آخذه لك؟ فأجاب الرسول معتمداً على حركة رأسه الشريف المفضية إلى معنى القبول، والقائلة بهزّه الرأس إلى الأسفل: "نعم". نظر لما كان يعانيه من شدّة، ويقاسيه من ألم فناولته السواك، فاشتدّ عليه مرضُ الموت، فقالت: مستدركةً، ألَيِّنُهُ لك؟ **فقال: «برأسه الشريف ثانية أن نعم».**[19]

اشتمل هذا الحديث على قطبين اثنين: اعتمد فيه القطب الأول في إبانته، وتواصله على المجرى الصائت الكلامي واعتمد فيه الثاني – صلى الله عليه وسلم – على المجرى الصامت الحركي، فانعقد التواصلي واقْتُنصَت الرسالة وكان للرأس الشريف فضلٌ ظاهرٌ في ذلك كله، وكان سبيل استدلال إلى المعنى الذي أراده صلى الله عليه وسلم.

2.الرأس المُستنْكرْ المستهْجن: وقد يكون للرأس هيئة حركيَّة تومئُ في سياقها إلى دلالة الاستنكار، أو الاستهجان والحقُّ أنّ هذا المعنى لا يتعينُ بالرأس وحدهُ وإنما بجُملة من الجوارح التي يتصدرها الرأس مثل الوجه وهذا ما أشرنا إليه آنفاً.

ومن الأحاديث المبينة للرأس المستنكر الحديث الشريف الذي رواه أبو موسى فقال: «**جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله، فإنّ أحدنا يقاتل غَضباً ويقاتل حميّة فلم يرُق ذلك لرسول الله، فرفع إليه رأسه مستدركاً مستهجناً لما كان قد صَدَر منه، معقباً بقوله: من قاتل لتكون كلمة الله في العليا فهو في سبيل الله عزّ وجل**».(20)

لقد كان في رفع الرأس - رأس الرسول صلى الله عليه وسلم – دلالة على الاستنكار والرفض، فالرسول لما استقبح قول الرجل ردَّ عليه بتلك الحركة والتي من دون شك كانت أبلغ من أي منطوق.

4- الأحاديث الخاصة بالانتقال من هيئة إلى هيئة: حسب مقتضيات الخطاب يتحول المرء من هيئة إلى هيئة أخرى في جلسته، فينعكسُ هذا التحول الخطابي على هيئة الجلسة، فيعدُلُ فيها أو منها وهي أشبه ما تكون بدرس الالتفات في علم البلاغة(21).

فعن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال :«**دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكئ على رمال حصير، فقلت يا رسول الله ادع الله أن يوسّع على أمتك فقد وسّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله – فاستوى جالسا، وقال صلى الله عليه وسلم: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا.** »(22)

وقد التفت الرواة على نحو مُعجب إلى أثر ذلك في الإبانة وجذب المتلقي على نحو تواصلي، ومن ذلك قوله عن أكبر الكبائر وهي الإشراك بالله وعقوق الوالدين، ثم لما أتى على الثالثة جلس بعد أن كان متّكئاً لخطورة ما سيردُ عليه.

فعن أبي بكر رضي الله عنه قال: « **كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم – فقال: ألا أنبئُكُم بأكبر الكبائر، ثلاثاً الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزُور وقول الزور وكان متكئًا فجَلسَ – فمازال يكررها حتى قلنا ليتَهُ سكت.** »(23)

والظاهر أن في تكرارها (شهادة الزور وقول الزور) تأكيدا لفظيًّا، وأن في تعديل الجلسة توكيدا تركيبيا منبئًا عن أهمية ما سيأتي بَيانُهُ وبذا تظافرت الدلالتان :الصائتة والصامتة في تأدية الفرض المقصود وإبانتُهُ.

كما نلحظ تجلي هذا الانتقال من هيئة لأخرى في قوله صلى الله عليه وسلم :« **كما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهاهم عُلمَاؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم وآكلُوهم و شاربوهم فظربَ الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهُم على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدُون – فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً – فقال: " والذي نفسي بيده حتى تَأطروُهم على الحق أَطراً.** »[24]

.5-الأحاديث الخاصة باستعمال العصا ودلالاتها: المتدبّر للحديث النبوي الشريف يجد أنَّه استعان بعصاه على أداء مراده وتعيين معانيه، فقد صخَّرَهَا في بعض المواقف لهذا الغرض الدلالي التواصلي والحق أن مفهوم العصا واسعٌ في الحديث، فمن ذلك "المخصَرة " و" العودُ "، و"والعصاَ"، وقد ظهر بها المعنى مرسوما مرة ومرةً ممثلاً، ومرةً مقرراً مُؤكداً على الهيئات التالية: [25]

أ.المعنى مرسوماً:

قد كان صلى الله عليه وسلم يُبينُ عن مقاصد كلمة ورسوم تعابير يتخذ وسائل شتَّى، وسُبُلا توضيحية ومن ذلك رسم المعنى المراد على الأرض، وفي ذلك إبانةُ غير لفظية ظاهر أمرها "فالإشارة مبنية أساساً على المشابهة التشخيصية " ومثالها "« **أنه خطَّ مربعاً على الأرض، وخطَّ خطاً في الوسط، خارجاً منه، وخطَّ خطوطا صغاراً إلى هذا في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: "هذا الإنسأن، وهذا أجله محيطٌ به، أو قد أحاَط به، وهذا الذي هو خارجٌ أملُه، وهذه الخطوط الصغارُ الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا.** »[26]

وفي سُنَن ابن ماجة: **أنه خطَّ مربعا، وخَطاً وسط الخَطّ المربع، وخطوطا إلى جانب الخَطّ الذي وَسَطَ الخَطّ المربع، وخطّاً خارجا من الخطّ المربع، فقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله و الرسول أعلم،**

قال: هذا الإنسان الخط ألأوسط وهذه الخطوط إلى جانبه الأعراض تنهشه من كلّ مكان، فإن أخطأه هذا أصابه هذا، و الخطّ المربع الأجل المحيط والخطّ الخارج الأمَل: (27)

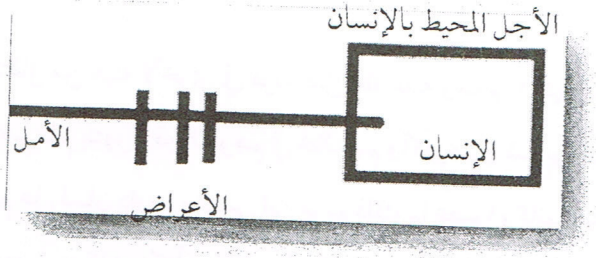

وقيل هكذا:

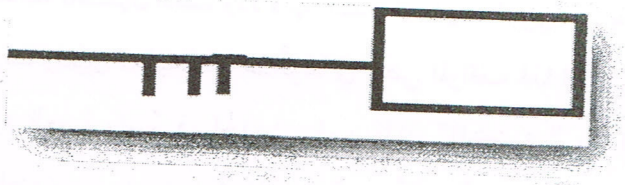

وقيل هكذا:

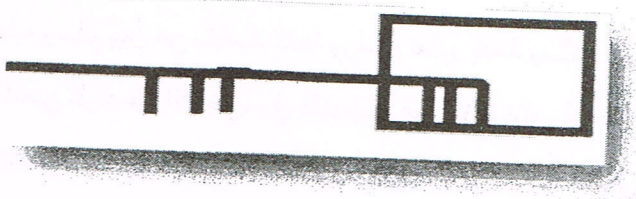

وهذا التمثيل بالرسم من الرسول –صلى الله عليه وسلم – لتجليّة المعنى ولتفسيره، ومن ذلك الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود قال: «**خطَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا بيده، ثم قال: هذه سبيل الله مستَقيمًا، وخطَّ عَن يَمينه وَشماله، ثم قال: هَذه السُبُل ليس منها سبل إلا علية شيطان يدعوا إليه.**»(28)

التـــمثيل: [29]

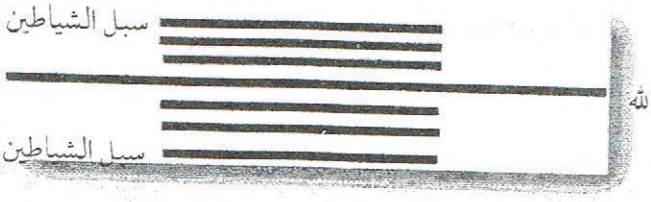

ب: **المعنى ممثلاً**: أحيانا كان الرسول – الرسول صلى الله عليه وسلم - يستخدم عصاه في تمثيل مقصده، فعَقَد مقابلةً بين حالتين مقَرراً أن بينهما وجه شبه ظاهر، وابتدر أمره بتمثيل المعنى الذي أدَّاه مرَّتين في الحديث نفسه، مرة ممثلاً بعصاه، وأخرى منطوقا بلفظه الشريف، وقد ظَهَرَ التوافق الدّلاليُّ بين الحركات التمثلية وما أراد أن يوصله ومثاله.

عن أنس رضي الله عنه أن الرسول- صلى الله عليه وسلم – أخذ غصنًا فنفضه فلم ينتفض، ثمَّ نفضه فلم ينتفض، ثُمَّ نفضَهُ فانتفض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**إنَّ سُبحَان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تنفض الخطايا كما تَنفُضَ الشَجَرةُ وَرَقَهاَ.** » [30]

ونلمح هذا المعنى الممثل في حديث آخر في قوله صلى الله عليه وسلم: « **هل تدرون مثل هذه وهذه ؟، ورمى بحصاتين فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: ذاك الأمل، وذاك الأجل.** » [31]

فمن خلال هذا الحديث نفهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى حصاتين إحداهما قريبة والأخرى بعيدة، وبالطبع القريبة تشير إلى الأجل، والبعيدة تشير إلى الأمل، ودائماً ما يكون الأمل أوسع من الأجل.

ج – **المعنى مقرراً ومُحققاً** :قد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم المخصَرَة وفي بعض الأحيان العُود، في أحاديثه، والمخصرة شيءٌ يأخذه الرجُلُ بيده ليتوكأ عليه مثل العصا وهو أيضا مما يأخذه الملك يُشيرُ به إذا خطبَ. » [32]

فعن سيدنا علي رضي الله عنه – قال: « **كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم، فقعد وقعدنا حوله ومعهُ مخصَرَةٌ فنكس، فجعل ينكُت بمخصرته ثم قال: ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا ما كتبَ مكانُها من الجنة والنار، و إلا قد كُتب شقّيةٌ أو سعيدةٌ.** » (33)

وعن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله رضي الله عنه قال: "**دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح البيت ستُون وثلاثمائة نُصُب.... فَجَعل يطعَنُهَا بعُود في يده ويقول: جاء الحَقُّ وزهق الباطلُ.** » (34)

وهنا نلحظ دور العصا في خدمة المعنى ذلك أنها كانت وسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم في طعن النُصب التي كانت مُحيطة بالبيت وأعانتهُ على إظهار الحق.

5- خصـــائص اللغة غير اللفظية في الحديث النبوي: يمكن استخلاص عدة خصائص أو سمات للأنظمة غير اللفظية في الحديث النبوي نعرضها على النحوي التالي :

أ: **الاستقلالية:** من المواقف التي يمكن أن يلجأ فيها المتكلم إلى الأنظمة غير اللفظية، موقف المرض والضعف، وهناك مجموعة من الأحاديث وردت في مرض الرسول صلى الله عليه وسلم نختار من بينها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: « **إن من الله عليَّ أن رسول الله عليه وسلم توفيَ في بيتي، وفي يومي وبين سحري ونَحري، و أن الله بين ريقي وريقه عند موته دخل علي عبد الرحمان وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك، فأشار برأسه أن نعم فتناولته فاشتد عليه، وقلت أُلينُه لَكَ، فأَشار برأسه أن نَعم فَليَّنتُهُ فأمرهُ وبين يديه ركوة أو علبة فيها مَاء، فجعل يُدخل يَديه في الماء، فمسح بهما وجههُ ويقول لا إله إلا الله إن للموت سكراتٌ، ثم نَصبَ يَده في الرَفيق الأعلى حتى قُبض، ومالت يده**» (35)

وفي هذا الموقف الذي يشارف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم على الموت تَتَسم الأنساق غير اللفظية بالاستقلالية التامة عن الأنساق اللغوية، فجاءت النظرة معبرة عن حب السواك، والرغبة فيه، وأحرزَت الإشارة بالرأس مرتين دلالة الإثبات، ودَّل ميل اليد على صعود الروح إلى بارئها، ومفارقة الحَيَاة.

ومن خلال تلك الأنظمة غير اللفظية تم رسم صورة لحَالة من حالات الضعف الشديد أمام سطوة الموت، وجاءت دالة دلالة واضحة على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو يمرض كما يمرضُ البَشر، ويموت كما يَموتون.

ومن سمات الاستقلالية للأنظمة غير اللفظية استخدم العقد، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه استيقظ محمراً وجهه، وهو يَقول :« **لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج مثل هذه، وعقد سفيان (أحد رواة الحديث)تسعين أو مائة: وفي رواية أخرى حلق بإصبعه الإبهام والتي تليهَا.**» (36)

ويعلق "ابن حجر" على الحديث قائلا: « عَقد التسعين أن يجعل طرفَ السبابة اليُمنى في أصلها، ويَضُمها ضماً محكمًا بحيث ينطوي عُقدتاهُما، وعقد المائة مثل عقد التسعين، لكن بالخنصر اليسرى، وعلى هذا فالتسعون والمائة متقاربان. »(37)

و نتبين استقلالية النسق غير اللفظي من قول "ابن حجر" أيضا :« **وأما عقد الحساب فانه اصطلح للعرب توا ضعوه بينهم ليستغنوا به عن التلفظ، وكان أكثر استعمالهم له عند المساومة في البيع، فيضع أَحدُهما يده في يد الآخر فيفهمان المُرَاد من غير تلفظ لقصد ستر ذلك عن غيرهما ممن حَضَرهما فشبَه صلى الله عليه وسلم قدرَ مَا فتح من السَدّ بصفة معروُفة عندهم... وعقد الثلاثين أن يضم طرف الإبهام إلى طرف السبابة، مثل من يمسك شيئًا لطيفًا كالإبرة، وكذلك البرغوث، وعقد التسعين أن يجعل الإبهام بين عقدتي السبابة من باطنها ويلوي السبابة عليها مثل ناقد الدينار** » (38)

ومما سبق يتضح أهمية الأنظمة غير اللفظية في كثير من المواقف التي لا تصلح لها، ومن هنا تؤدى الإشارة ما لا تؤديه العبارة.

ب:الصـــدق :في هذا الصدد نرى تفوق الوسائل غير اللفظية على نظيرتها اللفظية في كونها لا تَقَعُ تحت سيطرة المُتَصل أو تحكُمه، أو وعيَهُ، ولذَا فهي عادة ما تكون خالية من الخداع والتشويه والتضليل.

ويُمكن أن نَتبَين ذلك من حديث عطية عن أبي سعيد قال :« قال رسول الله عليه وسلم من جرَّ إزاره من الخيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة. قال فلقيتُ عُمر بالبلاط، فذكرت له حديث أبي سعيد عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال وأشار إلى أُذُنيه سمعته أذناي ووَعاه قلبي.» (39)

وهنا إشارة "عمر "-رضي الله عنه- إلى أذنيه تدل دلالة واضحة على صدقه في سماع الحديث الذي رواه أبو سعيد ومن ثم نرى تلك الإشارة أدت دوراً مهماً في إزالة أي شك أو تردد قد يقع فيه المخاطب.

ج: **قيام اللغة غير المنطوقة بدور مساعد للغة المنطوقة** :مما لا شك فيه أن « الوسائل غير اللفظية تقوم – في كثير من الأحيان –بدور مساعد للغة اللفظية، وهو دور لا يستغنى عنه في تحقيق تواصل على مستوى عال، فالمتكلم يضيف بوسائله غير اللفظية مفاتيح جديدة تَخدم المعنى. »(40)

والأحاديث في هذا الأمر كثيرة ومتنوعة، ونَقف على حديثين فقط نتبين من خلالها الدور المساعد الذي تقوم به الأنظمة غير اللفظية لإحداث نوع من التواصل بين المرسل والمستقبل.

والحديث الأول عن أنس بن مالك قال: « **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول اللهم ثبت قلبي على دينك، فقال رجل: يا رسول الله تخاف علينا، وقَد آمَنَّا بكَ، وصدّقنَاك بما جئت به، فقال: إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمان عز وجل يقلبها وأشار الأعمش بإصبعه.**»(41)

و هنا لم تأت الإشارة – ولأنها نسق غير لفظي – مستقلة، بل جاءت مصاحبة لنظيرها اللفظي فحاكى الراوي بإشارة إصبعه حركة تقلب القلوب بهدف توصيل المعنى إلى المتلقي وبجانب تحقيق الإشارة الشفرة التوصيلية، فقد حققت شفرة جمالية عن طريق تصوير حركة القلوب في صورة حسية ملموسة تكون أشد نَفَاذاً إلى فكر المتلقي ووَعيه. (42)

د: تفوق اللغة غير المنطوقة في المواقف العاطفية :

يمكن لنا بسهولة ملاحظة تفوق « الوسائل غير اللفظية كذلك في المواقف العاطفية التي تعتمد على التأثير والإيحاء، ولما كانت طبيعة بعض المواقف الاتصالية العاطفية كان التعبير عنها

بصورة غير مباشرة (عن طريق ابتسامة أو نظرة، أو تكشيرة، أو إيماءة بالرأس) أفضل من التعبير عنها بصورة مباشرة.

نتبين دلالة الغضب من خلال اللغة غير المنطوقة من حديث سليمان بن صرد قال: «**استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأعرف كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد لو قال: أعوذ بالله من الشيطان اذهب ما يجد، فقال له: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تعوذ من الشيطان، فقال: وهل بي من جنون؟** »[43].

نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يفسر الغضب بقوله: «**ألا و إن الغضَبَ جمرة في القلب لابن آدم، أما رأيتم إلى احمرار عينه وانتفاخ أوداجه، فمن أحسن من ذلك فليلصق بالأرض.**

ومما لا شك فيه أن الوسيلة غير اللفظية الواردة في هذا الحديث تعبيراً عن الغضَب تتفوق على أي وسيلة لفظية أخرى فلو وصفنا هذا الرجل الغضبان بكل الأنظمة اللغوية على النحو التالي: هذا غضبان – أصابه غضب شديد – إن هذا الغضبان– والله هذا لغضبان، فلا يمكن أن تكون هذه الأنساق اللغوية أكثر دلالة على الغضب من النسق غير اللفظي المتمثل في احمرار العينين، وانتفاخ الأوداج.» [44]

ومن كل ما سبق فقد اتضح أن اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي أسهمت بدور بارز في تحديدا المعنى، وارتبطت في سياق الحال و أدت وظائف متنوعة من الخصائص والسمات، ومن ثم كانت لها أهميتها في الأداء النبوي، وفي نص هو أبلغ النصوص البشرية على الإطلاق

خـــاتمة: لقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم في التصوير (الإشارة والحركة والرسم)، وكان لكل وسيلة من هذه الوسائل أثرها في موضوعها، فالإشارة إذا كانت في محلها كانت مُعينة على الفهم، لافتة للنظر صادرة للشرود مشركة في المتابعة أكثر من حاسته، وكان لحركته صلى الله عليه وسلم، وإشارته موضع كبير في إجادة الأداء، فحركته الصغيرة تلفت النظر، وتنبه الغافل وتعيين على الحفظ والتذكر؛ أما الرسم فإنه أسلوب تعليمي يوضح الأمر أتم توضيح وإنه لمستوى رفيع في التوجيه والإبلاغ. ومن ذلك يمكن استنتاج ما يلي:

• إن كل من اللغة اللفظية وغير اللفظية تتقاطعان في تحقيق وإنجاح عملية التواصل.

• إن تجلي اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي الشريف فيه إبانة على مدى قدرتها على إيصال المعنى وبصورة أبلغ.

• إن من الهيئات الواردة في الأحاديث النبوية الشريفة السابق ذكرها ما هو تلقائي يظهر على الجوارح دون أي تصنُع كالذي رئي في وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم، من معاني الفرح أو الغضب ومنها ما هو مستدعى قصداً لحاجات في النفس كتشبيك اليدين، وما شاكلها.

• أن هيئات جوارح الرسول صلى الله عليه وسلم ودلالاتها الواردة في هذه المباحثة يمكن أن تكون نابعة من وجهات متباينة و من ذلك الوجهة الدلالية، والوجهة التواصلية، والوجهة النفسية، والوجهة التشريعية.

وكل هذه الوجهات هي خادمة لأسمى رسالة جاء بها ديننا الحنيف؛ إذ لا يكون هناك تشويش ولا صعوبة في إيصال المعنى؛ ولذلك جنح الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى استعمال طرق (استخدام الحركات الجسمية: الأصابع، اليد، الوجه، الرأس، الهيئة والحركات الأدواتية: العصا، المخصرة ...) قد تكون في بعض الأحيان هي الأساس في استخدامها؛ حتى يتسم المعنى بالتجلي والوضوح.

مراجع البحث وإحالاته :

1- ينظر: حركة اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي د. محمد عبد الرحمان عطا الله البربري للطباعة مكتبة. القاهرة، ط1 (2011)، ص :13، 14.

2-البيان والتبيين، الجاحظ، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، (2000)، ص: 44.

3 – ينظر: الإشارات الجسمية – دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل، زكريا حسام الدين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، (1991)، ص :52.

4- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل، قاسم الرفاعي، دار الأرقم بيروت، ط3، (1997)، كتاب الطلاق و كتاب الرقاق، ص: 4/ 103.

5- البيان بلا لسان . دراسة في لغة الجسد، د.مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، (2007) ص:235.

6 – الترهيب والترغيب، الإمام عبد العظيم بن عبد القوي المنذري .دار الهيثم، القاهرة، ط 1، ص:126، 127.

7 – صحيح البخاري، تح: د. مصطفى ديب البغا، كتاب الطلاق، دار ابن كثير، بيروت، ط2، (1987)، 5 / 202.

8 – ينظر: موسوعة الأحاديث النبوية – عبد الرحمان طالب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية – رغاية الجزائر (1995) ص:23، 24.

9 – السنن الكبرىٰ، النسائي، تح: عبد القهار سليمان البنداري وسيد كسراوي حسن، دار الكتب العملية بيروت ط1، (1991)، ص: 402.

10 – سنن النسائي، تح: الألباني محمد ناصر الدين، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، (د.ت)، ص :202.

11 – صحيح البخاري، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس (67/ 83)، / 107 .

12 – البيان بلا لسان – دراسة في لغة الجسد – د. مهدي أسعد عرار البيان ص :228، 229.

13 – صحيح البخاري، كتاب الطلاق باب اللعان، ص: 102/ 103.

14 – المصدر نفسه، كتاب العمل في الصلاة، ص :518.

15 – الترغيب والترهيب، للإمام عبد العظيم بن القوي المنذري، 4 / 144.

16 – المصدر نفسه، 1|248.

17 – البيان بلا لسان. دراسة لغة الجسد. د. مهدي أسعد عرار، ص: 204 .

18 – الترغيب والترهيب، للإمام عبد العظيم لابن عبد القوي المنذري 4|77، 78.

19 – صحيح البخاري. للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، 3/ 322.

20 – المصدر نفسه، كتاب العلم، 1/ 124.

21 – ينظر، البيان بلالسان – دراسة في لغة الجسد – د. مهدي أسعد عرار ص 244.

22 –قصص القرآن – للإمام ابن كثير، تح. صلاح الدين محمود الشعير ص 149| 150.

23 – الترغيب و الترهيب، للإمام عبد العظيم أبن عبد القوي ص 7| 63 .

24– الترغيب و الترهيب، للإمام عبد العظيم أبن عبد القوي 7| 63 .

25– ينظر :البيان بلا لسان – دراسة في لغة الجسد – د. مهدي أسعد عرار ص :246.

26 – حركة اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي د. عبد الرحمن عطا الله، ص: 70.

27- المرجع السابق، ص 246، 247.

28- حركة اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي، د. محمد عبد الرحمن عطا الله، ص: 70 .

29 - البيان بلا لسان – دراسة في لغة الجسد – د. مهدي أسعد عرار، ص: 248 .

30 - الترهيب والترغيب، للإمام عبد العظيم بن القوي، 2|173

31- صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، 4|1561.

32 - البيان بلا لسان – دراسة في لغة الجسد – د. مهدي أسعد عرار، ص: 249 .

33 - مصابيح السنن فيما إتفق عليه رجال الصحيح والسنن. د. طالب عبد الرحمن أبي أحمد، المؤسسة الوطنية للفنون الحدة المطبعية الرغاية، (1984)، ص: 23.

34- المرجع السابق، ص: 250 .

35- صحيح البخاري، كتاب المغازي، 3|1616.

36 - المصدر نفسه، كتاب الأنبياء.، 3 / 1221.

37 - حركة اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي، د. محمد عبد الرحمن عطا الله، ص: 82.

38- فتح الباري، العسقلاني بن حجر، القاهرة (1959)، 16 / 224.

39- المرجع السابق، ص: 83.

40 - لغة بغير كلمات، كتاب الدعاء، محمد ابن القزويني بن ماجة، دار الفكر، بيروت، 1/ 182.

41- سنن ابن ماجة، كتاب الدعاء، محمد ابن يزيد القزويني بن ماجة، دار الفكر ن بيروت، 1/ 182.

84- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، الإمام مسلم، 4/ 2015.

43 - صحيح مسلم، تح :محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب البر والصلة، دار إحياء التراث، بيروت، (1987)، 4/ 2015

44- حركة اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي، د. محمد عبد الرحمن عطا الله، ص: 86 .